



تقرير التنمية الإنسانية العربية 2003

بيان صحفي 8

ضمور الطبقة الوسطى العربية يعيق تنمية المعرفة

"ألفنا أن نعتبر التصاغر أدبا، والتذلل لطفاء، وقبول الإهانة تواضعا، والرضا بالظلم طاعة، والإقدام تهورا، وحرية القول وقاحة، وحرية الفكر كفرا، وحب الوطن جنونا... ترضون بأدنى المعيشة عجزا تسمونه قناعة، وتهملون شؤونكم تهائونا وتسمونه توكلا، تموهون عن جهلكم الأسباب بقضاء الله، وتدفعون عار المسببات يعطفها على القدر، ألا والله ما هذا شأن البشر".
عبد الرحمن الكواكبي (1854-1902) من كتابه "طبائع الاستبداد"

من النتائج التي يخلص إليها تقرير التنمية الإنسانية العربية 2003 أن تقلص الطبقة الوسطى العربية يجعل من بناء منظومة المعرفة مهمة أكثر عسرا. إن قطاعا واسعا من الطبقة الوسطى المتعلمة القادرة على تقدير شتى أشكال المعرفة يقوم في العادة بدور مهم في التأثير على تنمية المعرفة، ولا سيما إذا ساندته شبكة من الباحثين الذين يتمتعون بالأمن الوظيفي والمالي، والذين يكرسون جهودهم لنيل العلم ويشاركون أقرانهم في ما يكتسبون من معارف. غير أن المشكلة، كما يرى التقرير، تكمن في أن الطبقة الوسطى في البلدان العربية آخذة بالضمور تحت وطأة الفقر المتزايد والتوزيع غير العادل للثروة. ويتفاقم هذا الوضع بفعل التردي المطرد في المساعي الرامية إلى التحصيل المعرفي، وباللغة العربية بصورة خاصة.

والعوامل الأخرى التي تسهم في الانتقاص من القدرة على إثراء الذخر المعرفي هي الطابع الاستنزافي للبرامج الترفيهية التي تبثها وسائل الإعلام الجماهيرية، والإنتاج الفني بالجملة، والآثار المموجة لعولمة الثقافة، وهبوط نوعية التعليم، وتآكل المحفزات المجتمعية لاكتساب المعرفة.

إن تراجع الطبقات الوسطى يزداد سوءا بفعل تضخم ظاهرة "البطالة المتعلمة"، وهي نتيجة لعدم التوافق بين مخرجات الجامعات من جهة، ومتطلبات سوق العمل من جهة أخرى. ويلاحظ التقرير أن توزيع "السلطة"، الذي توازى في أحيان مع توزيع الثروة في البلدان العربية، قد ترك آثاره في أخلاق الأفراد والمجتمعات. وبدا أن استشراف المنفعة وتقديم الخير الخاص على الخير العام والفساد الاجتماعي والأخلاقي وغياب النزاهة والمسؤولية، وأمراضا أخرى كثيرة، إنما ترتبط جميعا بشكل أو بآخر بهذا التفاوت غير العادل أو غير المتكافئ. وكانت العدالة الاجتماعية هي الضحية قبل غيرها.



كما أصابت الفورة النفطية عددا من القيم والحوافز الاجتماعية التي كان يمكن أن توازر وتسند الإبداع واكتساب ونشر المعرفة. ولكن القيم السالبة التي انتشرت خلال الفترة الماضية قعدت بالإبداع وأفرغت المعرفة من مضمونها التنموي والإنساني. فقد ضعفت القيمة الاجتماعية للعالم والمتعلم والمتقف، وباتت القيمة الاجتماعية العليا للثراء والمال- بغض النظر عن الوسائل المؤدية إليهما. وحلت الملكية والامتلاك محل المعرفة والعلم. ويعتقد مؤلفو التقرير أن "المرحلة الراهنة قد فقدت قيم نمط الوجود الذي يتميز بالاستقلالية والحرية وحضور العقل النقدي، والنشاط الإيجابي الفاعل، وحرية الاختيار". وقد دفنت هذه القيم أو كادت. وما زالت تداعيات انهيارها تقوض بنية الحوافز المجتمعية للمعرفة حتى الآن".

إن اكتساب المعرفة، كما يؤكد تقرير "التنمية الإنسانية العربية"، يختلف عن اقتناء الثروة المادية. إن النقلات النوعية ترتبط بتنمية القاعدة المعرفية، وبانسياب تدفق المعرفة في أوساط المجتمع جميعها. ولتحقيق ذلك، ينبغي أن يتمتع المواطنون العرب بما يستحقونه من الكرامة الإنسانية كاملة غير منقوصة. وإذا ما أريد لجميع المواطنين، بصرف النظر عن مستواهم الاقتصادي أو منزلتهم الاجتماعية أن يسهموا في تنمية المعرفة و يفيدوا من ثمارها، فلا بد من تحريرهم من جميع أشكال التمييز، ولا سيما بين النساء والأطفال. كذلك أسهمت ظاهرة هجرة الأدمغة والكفاءات المؤهلة في تآكل الطبقة الوسطى العربية.

فبين عامي **1998** و **2000** غادر أكثر من **15000** طبيب عربي إلى أوروبا. ولا تقتصر الخسارة المترتبة على هجرة هذه الكفاءات على تحمل المجتمعات العربية تكلفة إعداد الكفاءات المهاجرة إلى البلدان المتقدمة الأغنى، بل لعل الكلفة الأكبر هي تكلفة الفرصة المضاعة المتمثلة في تغييب المساهمة المنتظرة لهذه الكفاءات في التنمية الوطنية وبخاصة في بناء منظومة المعرفة الوطنية. وتستدعي هذه الخسارة المزدوجة عملا جادا لتقليلها إلى أدنى حد ممكن، بالاستفادة من الكفاءات العربية المهاجرة أثناء وجودها في المغرب، أو لتحويلها إلى مكسب هائل باجتذاب الكفاءات المهاجرة للعودة، مؤقتا أو نهائيا، محملة برأس مال معرفي أضخم مما تركوا به. ولن يتأتى هذا إلا بقيام مشروع جدي للنهضة الإنسانية في الوطن العربي يغري الكفاءات المهاجرة بالعودة، المؤقتة أو الدائمة، ويجعل مشاركتهم منتجة ومحققة للذات ولنهضة الأوطان في آن.